بين الحرب والجغرافيا

دوافع الحرب وأهدافها فى أوربا

أوربا قارة صغيرة ؛ بل إن كثيراً من الجغرافيين لا ينظرون إليها إلا على أنها شبه جزيرة كبير يمتد من قارة آسيا ويتفرع عنها . وهى فوق ذلك تقع فى منطقة متطرفة فى أقصى شمال غرب العالم القديم ؛ ولم يبرز شأنها وتتضح قيمتها بين القارات الأخرى إلا منذ عهد النهضة الحديثة . فهى فيما عدا أطرافها الجنوبية فى بلاد اليونان وإيطاليا وأسپانيا لم تلعب دوراً يذكر فى تاريخ العالم القديم أو الوسيط ؛ بل هى من حيث تاريخها الثقافى العام بقيت عالة على غيرها ، لاسيما بلاد الشرق التى ظهرت فيها الأديان السماوية وألوان الفكر والثقافة القديمة والوسيطة ، ثم انتشرت إلى أوربا . ومع ذلك كله فمنذ عهد النهضة الحديثة وظهور الصناعة التى تعتمد على الآلات والقوى المحركة برزت أوربا فجأة ، وقفزت إلى القمة ، فأصبحت القارة المسيطرة على الشئون العالمية ، بل القارة الأولى من حيث توجيه حياة العالم فى ميادين الحضارة المادية والعلاقات الدولية بين الأمم والشعوب .

وليس هذا مجال الإفاضة فى أسباب بروز أوربا المفاجئ ؛ ولكن يكفى أن ننظر نظرة عامة إلى تطور مدنية الإنسان على سطح الأرض ، فنجد أن المدنيات القديمة كانت فى جملتها قائمة على أساس الزراعة كما هى الحال فى مصر والعراق والصين ، أو على أساس التجارة كما هى الحال فى اليونان القديمة . ومع أن الصناعة كانت مزدهرة فى تلك الأيام ، فقد كانت كلها تقوم على المهارة الفنية والحذق الشخصى أكثر مما تقوم على استغلال قوى الطبيعة الآلية . وقد سخر الإنسان بعض تلك القوى الطبيعية فى العصور القديمة والوسيطة ، كالريح والمياه الجارية ومساقط الماء ؛ ولكنه كان تسخيراً محدوداً يقوم على استغلال القوى فى حالتها الطبيعية . أما فى عهد النهضة الصناعية الأوربية ، فقد تعلم الإنسان لأول مرة أن يحوّل الحرارة إلى طاقة ، وأن يستخدم تلك الطاقة كقوة محركة تدار

بها الآلات التى تعمل فى الإنتاج أو فى النقل والحركة . وقد وضع هذا الاختراع — أو السلسلة من الاختراعات — فى يد الإنسان سلاحاً سخّر به موارد الطبيعة والقوى الطبيعية على نحو لم يكن ميسوراً من قبل ، وفى نطاق تغير معه كل شىء فى الصناعة والإنتاج ، وفى الاتصال والتبادل ؛ بل تغيرت معه أسس الحياة الاقتصادية فى ميادين الصناعة والزراعة والتجارة جميعا ؛ وأصبح هذا العصر الجديد يسمى بحق « عصر الآلات » .

وكان من حظ أوربا أن كثرت بها موارد القوى ، وأهمها الفحم الحجرى ، وكذلك المعادن التى تستعمل فى الصناعة ، وعلى رأسها الحديد . وبذلك توافرت العناصر التى تقوم عليها المدنية الصناعية الحديثة ؛ وأصبحت أوربا بحق أسبق القارات وأولاها فى ميدان الصناعة ؛ وكان ذلك مصدر خير كثير بالنسبة لأهلها ، وإن كان قد أدى إلى انقلاب خطير فى حياتهم ولكن الشىء المهم على كل حال أن النهضة الحديثة قد صحبها ونتج عنها نشاط خطير بين أمم القارة التى تسابقت فى ميادين الصناعة وما يتصل بها ويترتب عليها من توسع استعمارى وتكالب من أجل مناطق إنتاج المواد الخام التى تغذى المصانع بما لا تنتجه أوربا ، ومن أجل أسواق التجارة التى تصرف فيها المصنوعات . وهكذا اتسعت رقعة الاختلاف ، ولم تقتصر على أرض أوربا ، وإنما تعدتها إلى ما وراء البحار ؛ وانتهى ذلك إلى أن أصبح لعدد من أمم أوربا مصالح مادية فيما صار يعرف بالمستعمرات ومناطق النفوذ . وقد بدأت تلك المصالح فى كثير من الأحيان تجارية واقتصادية خالصة ، ثم صارت بالتدريج سياسية وعسكرية . وهكذا تشابكت المصالح ، وتعددت أسبابها بين المناطق المعتدلة الباردة فى أوربا والمناطق الحارة والدفيئة بل والمعتدلة فى غيرها من القارات ، واشتد اتصال تلك المصالح بحياة أوربا ومشكلاتها الدولية على مر الزمن ؛ حتى إذا ما بلغ التسابق من أجل التوسع الاستعمارى الأوربى ذروته فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى ، كان ذلك نذيراً بما انتهى إليه الأمر فى الحرب العالمية التى بدأت عام ١٩١٤ ، والتى نستطيع أن نقول إن العالم لا يزال فى أعقابها حتى اليوم .

والحق ان أوربا بنهضتها الصناعية ، ومواردها الغنية فى الإنتاج الآلى ، ومصالحها المادية المتشابكة فى أقصى الأرض ، وأطماعها الاستعمارية فيما وراء البحار ، ثم برغبتها الملحة فى إشباع هذه الأطماع ، وإضافة ثروة العالم إلى ثروتها

واستكمال مواردها من موارده . . . كل ذلك قد جعل أوربا المسئولة الأولى والأخيرة عن هذه الحرب التى استعر لهيبها فشمل العالم ، والتى اضطرمت نيرانها وامتدت ألسنتها فى فترتين ، إحداهما ما بين عامى ١٩١٤ ، ١٩١٨ والأخرى مابين ١٩٣٩ ، ١٩٤٥ . وقد شبهناها فى مقال سابق* بالجولتين فى عراك واحد عنيف ؛ لم تكن أولاهما حاسمة ، فى حين قضت الثانية على أحد الخصمين قضاء يبدو كأن لا قيام له من بعده إلى سنوات عدة قادمة .

وقد عالجنا فى المقال السابق خطط تلك الحرب وآثارها ونتائجها فى إقليم من العالم يهمنا بصفة خاصة ، هو الشرق الأوسط ، الذى يربط إلى حد كبير ما بين أوربا ومصالحها الاستعمارية فى الشرق وحول البحار الدفيئة فى الجنوب . ويعنينا الآن أن نعالج دوافع تلك الحرب واتجاهاتها فى أوربا ذاتها . . . تلك القارة الصغيرة التى ساهمت بمواردها الطبيعية ونشاط سكانها فى تقدم المدنية المادية الحديثة مساهمة فعالة ، جعلت لها ولأهلها المكانة الأولى بين القارات وبين الأمم ، ولكنها مع ذلك كانت — ويغلب على الظن أنها ستبقى إلى جيلين أو أجيال أخرى قادمة — مصدر بلاء وحروب عالمية تكتوى بنيرانها الإنسانية حتى فى أبعد البلاد عن أوربا ، بل وفى الجزر النائية التى لا يكاد أهلها يعرفون عن أوربا أكثر من أنها موطن ذلك الرجل الأبيض ، الذى هبط عليهم من حيث لا يشعرون ، والذى أقحم نفسه فى شئونهم وحياتهم من حيث لم يدعه أحد .

ولكنا قبل أن نستعرض مختلف أجزاء تلك القارة وأممها المحاربة وميادينها العسكرية ، ينبغى من الناحية الجغرافية والبشرية العامة أن نميز بين جنوب القارة وشمالها . ففى الجنوب يسود مناخ البحر الأبيض المتوسط ، وهو مناخ معتدل منتظم يمكن التنبؤ بتقلباته فى غير كثير من العناء . ولا يفرض هذا النوع من المناخ على من يعيشون فيه أن يكونوا مكافحين بطبيعتهم ؛ إذ هم يستطيعون مثلاً أن يقضوا معظم أشهر الصيف فى العراء ، وهم يستطيعون بقليل من الجهد أن يتقوا برد الشتاء وأمطاره المتوسطة أو القليلة ، كما أن أشعة الشمس ودفء الهواء ورقته وجفافه تبعث كلها فيهم روح المرح وشيئا من روح الاستخفاف بالحياة . فأما شمال القارة وشمالها الغربى فمناخه بارد مطير

---

* الكاتب المصرى عدد ٨ (مايو ١٩٤٦) .

كثير التقلب ، تتنازعه مؤثرات المحيط الملطفة ، ومؤثرات القارة المتطرفة . وقد ترتب على ذلك ، وعلى كثرة الزوابع والأعاصير بصفة خاصة ، أن أصبح ذلك المناخ قاسياً غير معتدل ولا مضمون ؛ فهو كثير التقلبات من يوم إلى يوم ، بل من ساعة إلى أخرى . وقد علّم ذلك المناخ سكان الإقليم الحذر وبعد النظر ، كما علمهم الكفاح من أجل الحياة ؛ إذ لا يمكن أحداً أن يعيش فى العراء ، ولا أن يتقى أخطار الطقس وتقلبات الجوّ من غير مسكن صالح متين البناء ، ومن غير ملبس وغذاء كافيين ، فى ذلك المناخ الشمالى الذى لا يعرف حياة الكفاف ولا يسمح بها . لذلك استلزم قيام المدنية فى هذا القسم من أوربا أن تتعلم الشعوب هناك الكفاح والنضال ضد الطبيعة القاسية . وقد انعكس ذلك فى حياتهم وفى حروبهم بصفة خاصة . ولعل ذلك يتضح لنا فى صورة جلية إذا ما نحن قارنا ما حدث خلال هذه الحرب المنتهية فى حالة العناصر اللاتينية من جهة ، والعناصر الانجلوجرمانية والصقلبية الشمالية وغيرها من سكان شمال أوربا من جهة أخرى . فقد كان كفاح الأولى على الجملة فاتراً فى روحه محدوداً فى مداه ، وتمثل ذلك بصفة خاصة فى حالة الإيطاليين ، على حين صابر أهل الشمال وجاهدوا حتى النهاية المرة . ولو أن البريطانيين مثلاً كانوا من عنصر اللاتينيين وعجينتهم ما كابروا فى ساعة المحنة الكبرى ، عند ما رقّ حبل الأمل حتى كادت شعرته تنقطع . كذلك لولا روح المغامرة وطبيعة الكفاح ما وقفت فنلندة فى وجه روسيا مرتين فى هذه الحرب ، وما ثابرت وصابرت حتى النهاية أو ما يقارب النهاية . بل لولا هذه الروح وتلك الطبيعة ذاتها ما كابر أهل بولندة وضحوا إلى آخر رمق ، ولما ثبت الروس أنفسهم فى كفاحهم الطويل ضد خصمهم المكافح وعدوهم الجبار العنيد .

وإذا نحن تتبعنا أثر العوامل الجغرافية فى مختلف أقطار أوربا وشعوبها ، لاسيما تلك التى كان لها دور خاص فى هذه الحرب ، فإننا نجد فى هذه الدراسة مايعين على تفهم كثير من أحداث الحرب واتجاهاتها الكبرى ، تفهما صحيحاً ، تبرز به علاقة الحرب بالميدان الذى تجرى فيه ، كما يبرز الدور الذى قام به كل شعب من الشعوب المحاربة الكبرى ، ومقدرته على النضال والمصابرة فى الكفاح . وقد يكون من المفيد أن نختار أمثلة من مختلف الأقطار والأمم ، حتى نخرج بصورة عامة تمثل القارة فى مجموعها تمثيلا صادقاً وشاملاً فى الوقت نفسه .

ويحسن أن نبدأ بالجزر البريطانية وسكانها ، لا لشىء إلا لأن هذه الجزر الصغيرة قامت بدور أساسى وخطير فى الحرب . وهى إنما كتب لها أن تقوم بما قامت به فى تاريخ أوربا الحديث ، وفى صِلات القارة بالعالم الخارجى ؛ لتوافر عدد من العوامل الجغرافية مكنت لبريطانيا من أن تلعب ذلك الدور الممتاز . فهى جزيرة أو جزر غنية بثروتها المعدنية لاسيما الفحم الذى قامت على أساسه نهضتها الصناعية ، ويفصلها عن القارة بحر الشمال وبحر المانش وميا هما الضيقة التى لم « تقطع » صلة بريطانيا بالقارة ، وإنما « نظمت » تلك الصلة ، وظهر هذا التنظيم فى نواح متعددة ؛ منها أن بريطانيا عندما عُمرت بالسكان من القارة لم يهاجر إليها كل من هب ودب ، وإنما كانت موجات الهجرات تأتى من الشرق أو من الجنوب الشرقى إلى شواطىء القارة فى مقابلة الجزر البريطانية ، فلا يفكر فى استمرار المهاجرة بالبحر إلا العناصر المخاطرة ، لاسيما أن الملاحة فى مضايق المانش لم تكن سهلة على مدار العام ، وإنما زاد من صعوباتها شدة التيارات البحرية ووجود الأعاصير الشتوية . ولذلك كان البحر للهجرات البشرية بمثابة المصفاة ؛ فلم يصل بريطانيا على الجملة إلا العناصر التى لم يغلبها البحر ولم يحل بينها وبين أن تستكشف ما وراءه ، فتركت القارة إلى الجزر التى يحيط بها البحر من كل جانب . وهكذا وصلت هذه الجزر موجات متتابعة من الكلتيين القدماء والنرمانديين والأنجلوسكسونيين والنورس وغيرهم من مخاطرى البحار الذين تجمعوا فى تلك الجزر وأخذ بعضهم يخالط بعضاً ، حتى تألف منهم هذا العنصر البريطانى المختلط والمنوّع ، فى إنجلترا وبلاد الغال وأسكتلندة وإيرلندة وما يقع بين الجزيرتين الكبيرتين وحولهما من جزر صغيرة . وكما كانت طبيعة هذا العنصر وحبه للمخاطرة عاملاً فعالاً فى تاريخه الحديث ، عندما حانت الفرصة للتوسع والاستعمار فيما وراء البحار ، فانطلقت ذرية أولئك المخاطرين القدماء إلى أقاصى الأرض فى أميركا وأستراليا وجنوب إفريقية وغيرها على نحو لم يسبق له مثيل فى تاريخ انتشار الشعوب ـ كذلك كان اختلاط السلالات فى بريطانيا عاملاً من عوامل القوة فى المجتمع البريطانى ؛ إذ أنه أدى إلى تنوع الملكات ونواحى الاستعداد الفطرى ، فتشعب نشاط سكان بريطانيا فى الصناعة والتجارة والحرب وغيرها من ميادين العمل والإنتاج والكفاح .

كذلك كانت الجزر البريطانية مدرسة بحرية تعلّم فيها السكان حياة البحر

خلال أجيال طويله متعاقبة . فلما جاء العهد الحديث ، وبرزت أهمية البحار فى المواصلات العالمية، صارت بريطانيا سيدة هذه البحار وصاحبة الأسطول الأول فى التجارة والحرب على السواء . بدأت بهزيمة أساطيل الأسبان وغيرهم من العناصر البحرية الأوربية ، ثم تحكمت فى المواصلات البحرية بين أوربا وأمريكا بحكم موقعها الجغرافى بين الاثنتين من جهة ، ومقدرة مَلاحيها وتجّارها من جهة أخرى . ثم صارت بعد ذلك القوة البحرية الأولى غير منازعة ، حتى أخذت عنها أمريكا زعامة البحار وسيادتها بالتدريج خلال الجيل الأخير ، ولأسباب تتصل بموارد الولايات المتحدة وكندا فى المادة وعدد السكان ، أكثر مما تتصل بضعف بريطانيا أو انحلال قواتها البحرية .

وفوق ذلك فقد نظم البحر الذى يقوم بين بريطانيا واليابس الأوربى علاقات تلك الجزر بأوربا من ناحية الحرب ذاتها ، فجعل غزو تلك الجزر صعباً . ولذلك لا يذكر التاريخ إلا عدداً قليلاً من الغزوات إلى بريطانيا فى العصور القديمة والوسيطة ؛ منها غزوة يوليوس قيصر عامى ٥٥ ، ٥٤ ق . م ، وغزوة وليم الفاتح عام ١٠٦٦ م . كذلك شاركت بريطانيا فى العصر الحديث فى مشكلات القارة وحروبها الكثيرة ، ولكن الحرب كانت تقع دائما خارج أراضيها ؛ فهى تلقى أعداءها إما على البحار وإما فوق أراضى القارة فى الأراضى الوطيئة وفرنسا وأسپانيا وغيرها . فأرضها لم تكن فى يوم من الأيام ميدان حرب أوربية ؛ لذلك لم يصبها ما يصيب تلك الميادين من دمار وتخريب . حتى فى هذه الحرب التى انتهت منذ عام لم يكن ما أصاب بريطانيا من جراء تغير الأحوال وظهور أثر الهجوم الجوى فى الحرب إلا جزءاً يسيراً مما أصاب أرض القارة ومدنها ومواصلاتها ومرافقها المختلفة فى الحياة المدنية . وهكذا استطاعت بريطانيا بفضل هذه الميزة أن تخرج من كل حرب سليمة المرافق ، قادرة على متابعة حياتها العادية وإنتاجها الاقتصادى ؛ على عكس غيرها من الأمم والأقطار التى اكتوت مدنها وقراها ومصانعها بل حقولها بنيران الحرب فى الميدان ، فكانت بريطانيا بذلك أسبق إلى النهوض فى السلم ؛ لأنها كانت تخرج فى أعقاب الحروب — فيما عدا هذه الحرب الأخيرة — دون أن تمس أرضها بشىء .

إلى هذه الأسباب جميعاً يمكن أن نرجع ما أصاب بريطانيا فى تاريخها الحديث من نجح وتوفيق فى حروبها الأوربية ؛ لا سيما أن عامل الزمن كان إلى

جانبها ؛ فهى قد سبقت غيرها من أمم اوربا الكبرى فى التوسع الاستعمارى ؛ وهى قد استطاعت أن تبنى إمبراطوريتها المترامية الأطراف قبل أن تظهر بعض الأمم الأوربية الكبرى إلى الوجود ، وقبل أن تبرز حاجاتها وأطماعها الاستعمارية . وقد ترتب على هذه الأسبقية فى الميدان الاستعمارى أن تجمع لبريطانيا من الموارد المادية والمواقع العسكرية العالمية ما كان لها عوناً وسنداً فى السلم والحرب على السواء . ثم إنها بتوسعها هذا فى آفاق الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس ، قد قطعت الطريق على غيرها من أمم أوربا ، التى طلع عليها العهد الحديث بمواصلاته السريعة وعلاقاته الدولية المعقدة ومقتضياته الاقتصادية الملحة ، فألفاها — أو ألفى كثيراً منها — محصوراً داخل نطاق من الحدود السياسية التى لا تسمح بالتوسع إلا على حساب الأمم المجاورة ، وإلا فى مدى ضيق تراق من دونه دماء الألوف بل دماء الملايين . . . فأرض أوربا التى تقاس بالشبر ليست نهباً رخيصاً كما هى الحال فى أرض المستعمرات !

ولعل أظهر مثال لهذه الدول الأوربية التى جاءت متأخرة فى نشأتها القومية وتوسعها هى ألمانيا ، التى لم تستكمل وحدتها إلا أيام بسمرك . وقد دخلت بعد ذلك ميدان الاستعمار ، فنالت بعض الأراضى فى شرق إفريقية وغربها وبعض جزر المحيط الهادى ، ولكنها لم تكن لتناظر بذلك ما سبقتها إليه دول أوربا الغربية ، حتى الدول الصغيرة مثل هولندا والبرتغال ، التى وصلت الميدان مبكرة واحتفظت بما وضعت أيديها عليه من غنائم رخيصة . أما ألمانيا مع قوتها فى الموارد وتعدادها فى الرجال فقد جاءت متأخرة ، واضطرت من أجل ذلك إلى أن تناضل فى توسيع مجالها الحيوى فى أوربا ذاتها ؛ وكان عليها ، منذ أن حددت علاقاتها السياسية بالنمسا ، واتخذت كيانها السياسى البروسى المستقل ، أن تبذل جهد المستيئس لتدفع حدودها السياسية ومناطق نفوذها الاقتصادى ناحية الغرب أو ناحية الشرق . فأما فى الغرب فقد كان التوسع عسيراً ؛ فدول أوربا الغربية قد سبقت ألمانيا ذاتها إلى الاستقرار السياسى ، وإلى شئ كثير من التقدم الاقتصادى الذى لا يفيد معه أن تحاول ألمانيا السيطرة على مرافقها الحيوية . وأما فى الشرق فقد كان الميدان مفتوحاً أمام ألمانيا فى اتجاهات ثلاثة : الأول ناحية بروسيا الشرقية وسواحل البلطى حيث كان الفرسان التيوتون قد توسعوا من قبل ووطدوا نفوذهم الاقتصادى ، فامتلكوا المساحات الواسعة

من الأراضى وسخروا السكان الأصليين مأجورين فى تلك المزارع التى تذكرنا الحالة فيها بعهد الإقطاع. والاتجاه الثانى فى ناحية بولندة والروسيا ؛ وقد استقر الألمان المتزايدون فى العدد فى كثير من بقاع بولندة الغربية ، كما أن جماعات منهم رحلت إلى قلب الروسيا القديمة وجنوبها ، واستقرت هناك تعمل فى الصناعة وغيرها من نواحى الإنتاج . ثم الاتجاه الثالث ناحية بوهيميا وبعض أراضى النمسا والمجر القديمة فى اتجاه البلقان . ومن الممكن اعتبار توسع الألمان فى هذه الاتجاهات الثلاثة جميعاً استعماراً بالمعنى الفعلى للكلمة ، وإن لم يطلق عليه ذلك اللفظ تمييزاً له من حركة الاستعمار المعروفة فى خارج القارة الأوربية .

وهكذا حاولت ألمانيا أن تستفيد من موقعها الجغرافى فى قلب القارة الأوربية ، ومن احتكاكها الاقتصادى والسياسى بالدول المجاورة ، لا سيما فى الشرق والجنوب . ولكنها عند ما عمدت إلى التوسع المسلح وجدت نفسها مضطرة إلى أن تحارب فى أكثر من جبهة واحدة ؛ ففى الغرب كانت أمم قديمة ذات مقدرة تقليدية على الدفاع ، ولا يمكن قهرها بصفة دائمة ؛ وفى الشرق والجنوب كانت بلاد فسيحة وجبهات لا تحدها معالم واضحة ، وإنما هى ذات شعب كثيرة تستنفد الجهود ، ولا يسهل معها التركيز فى الهجوم ، ولا حتى فى الدفاع .

فأما الروسيا ، وهى ثالثة الدول الكبرى فى النضال الأوربى الأخير ، فكانت تحتل شرق أوربا ، وتمتد وراء ذلك فى آسيا . والروس كثرتهم من الصقالبة ، الذين امتازوا فى كل تاريخهم بأنهم شعب برى لا يحب البحار ولا يسعى إليها إلا مكرهاً ، قد تحاشى عند ما انتشر وعمر شرق القارة أن يقرب البحار ، ولم يحاول التسلط على المنافذ البحرية إلا متأخراً . فالصقالبة الجنوبيون فى يوجوسلافيا مثلا قد تجنبوا ساحل دلماشيا القديم وموانيه التى احتلها الطليان ، مثل تريستا وغيرها . والصقالبة الشماليون قد ابتعدوا عن سواحل البحر البلطى التى تقدم إليها التيوتون والفِنِّيون وغيرهم من سكان الولايات البلطية . والروس الجنوبيون وإن كانوا قد أطلوا على البحر الأسود ، فهم لم يشتغلوا فيه كثيراً بالملاحة ، ولم توفق جهودهم التاريخية فى أن يضعوا أيديهم على منافذه إلى البحر المتوسط . لذلك كله فإن هؤلاء الصقالبة لم يشاركوا بشئ يذكر فى توسع أوربا البحرى نحو المستعمرات ، ولم ينشأ بينهم وبين أمم أوربا الغربية ذات الصبغة البحرية من الاحتكاك مثل ما نشأ بين هؤلاء الأخيرين

وبين الألمان . . . ذلك الاحتكاك الذى ترتب على محاولة ألمانيا تقوية أسطولها وتمكين مصالحها فيما وراء البحار ، مما انتهى إلى الحرب بينها وبين بريطانيا آخر الأمر .

على أن مجال التوسع البرى كان مفتوحاً أمام الروسيا نحو الشرق . وقد بدأت بمد سكة حديد سيبيريا المعروفة ، ثم انتشر القوزاق وغيرهم واستعمروا سهول سيبيريا وآسيا الداخلية ، حتى وصل الروس إلى منشوريا والولايات البحرية المطلة على المحيط الهادى حيث احتكوا باليابان فى مطلع القرن . وكذلك حاولت الروسيا أن تتوسع بالبر نحو الجنوب الشرقى إلى أرض إيران ، وفى اتجاه أفغانستان والهند ، حيث اصطدمت بالنفوذ البريطانى اصطداماً لم يلطّف من حدته إلا اتفاق عام ١٩٠٧ على تقسيم مناطق النفوذ فى إيران .

وأما فرنسا ، وهى رابعة الأمم الكبرى فى أوربا ، فتقع عند الطرف الآخر من اليابس الأوربى من ناحية الغرب ؛ حيث تنتهى الطرق الآتية من البحر المتوسط ذى المدنية العريقة والحياة المستقرة القديمة ، وتلك الآتية من قلب القارة الذى لم تنفذ إليه المدنية إلا حديثاً ، والذى لم يكد يستقر بالحياة حتى فاجأته النهضة ، وما جاء فى أعقابها من اضطرابات وحروب وقلقلة فى الحدود السياسية والعسكرية بين الأمم . وتنتهى تلك الطرق جميعاً إلى الشواطئ المواجهة لبريطانيا التى تتحكم فى المداخل البحرية إلى اليابس الأوربى ، وفى صلات أوربا بما وراء البحار . وقد ساهمت فرنسا فى وقت متقدم فى حركة التوسع الأوربى إلى المستعمرات ، وحاولت فى ذلك أن تنافس بريطانيا حيناً ، وأن تجاريها حيناً آخر ، ولكنها لم تفز من توسعها إلا بنصيب أقل كثيراً من نصيب سيدة البحار . ذلك أن فرنسا كانت ، بحكم موقعها الجغرافى بين القارة والبحر ، تتجاذبها سياسة الاستعمار من جهة ، وسياسة المشاحنات القارية والارتباطات الدولية الأوربية من جهة أخرى . وهى فوق ذلك كانت بحكم موقعها الجغرافى أيضاً ميدان حرب سعت إليه جيوش الأعداء والحلفاء على السواء ، من الشرق أو من الغرب أو من وراء البحار . وتمثّل ذلك على الخصوص عندما بدأ الطموح يدفع بالعنصر الجرمانى إلى التوسع نحو الغرب ونحو البحار ، فاصطدم أولاً بفرنسا ذاتها اصطداماً ناجحاً فى عام ١٨٧٠ ، ثم بفرنسا وبريطانيا معاً اصطداماً غير ناجح فى الحرب العالمية الأخيرة بجولتيها فى أعوام ١٩١٤ — ١٩١٨ ثم ١٩٣٩

— ١٩٤٥ . ولعل الطريف فى هـذا الصدام الاخير بشقيه أن فرنسا ناءت منه بالحمل الأكبر من حيث التخريب ؛ فكانت أرضها ميـدان قتال عنيف خلال سنوات طويلة ، عند ما اكتسحتها جيوش الألمان فى حروبها الخاطفة وغير الخاطفة ضد الحلفاء ، وعند ما اتخذتها بريطانيا وحلفاء الغرب ميداناً يقاتلون فيه أعداءهم على القارة ، وينفذون منه إلى الأراضى الوطيئة وغرب ألمانيا من جهة ، وإلى حدود إيطاليا وشمالها من جهة أخرى .

تلك أهم أمم أوربا ، والعوامل الجغرافية والبشرية التى كيفت توسعها الحديث ، ووجّهته توجيهاً كان له أبعـد الأثر فيما قام فى تلك القارة من مشكلات خلال النصف الثانى من القرن المنصرم ، وهذا القرن الذى نعيش فيه . ولـكن هناك أمماً أخرى أثرت فيها عوامل مماثلة أو مختلفة ؛ منها الأراضى الوطيئة التى كانت على الدوام حلقة الاتصال بين ألمانيا من جهة ، وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى . فـكانت طريق التوسع العسكرى من جانب ألمانيا ، وجرت على أراضيها ، لا سيما سهل الفلاندر ، معارك تاريخية متكررة ؛ ولذا استمسكت بريطانيا باستقلالها ، ونادى بعض البريطانيين بأن حدود بلادهم العسكرية إنما تقع على ضفاف الرين .

وغير الأراضى الوطيئة هناك بلاد البلقان ، التى تتعقد فيها الطبيعة وتتعقد تبعاً لذلك حياة السكان وأحوالهم ، بحيث أصبح شبه الجزيرة يعرف بمتحف الأجناس والثقافات فى أوربا . فهناك تختلط السلالات ولا يمتزج بعضها ببعض ، وتتكاثر الثقافات ولا يتسق بعضها مع بعض . وهناك تتشابك الحدود السياسية فلا تتمشى مع حدود الطبيعة ، ولا حدود الجنس ، ولا حدود الثقافة ، ولا حدود المصالح الاقتصادية وهناك تتنازع تيارات النفوذ الدولى ، فتسعى كل من ألمانيا والروسيا وإيطاليا وحتى دول الغرب لأن تكون لها يد وتوجيه فى شئون البلقان . ولذلك كله كان هذا الركن من أوربا موطن اضطراب دائم ومصدر مشاحنات ومنازعات ، كثيراً ما انتهت إلى إشعال الحرب بين الأمم الـكبيرة .

أما إيطاليا فـكانت تمثل دولة حديثة ، بل آخر الدول الحديثة ظهوراً فى الميدان الأوربى . وكانت بحكم موقعها الجغرافى ذات أهمية خاصة فى كل كفاح ينشأ على القارة ، ويمتد إلى حوض البحر المتوسط . وقد جاء دورها فى الاستعمار الخارجى متأخراً ، فلم تصب إلا ما تبقى وزهد فيه الآخرون . ولـكنها فى العهد الفاشستى انتهزت بعض الفرص فوضعت يدها على الحبشـة ، وأحيت آمالها فى

التوسع نحو البلقان ، بل سرى الخيال بسادتها وقادتها إلى أن يفكروا فى استعادة مجدها الرومانى القديم . ومع ذلك كله فإن إيطاليا على الجملة لم تكن موفقة فيما ساهمت فيه من حروب حديثة على أرض القارة . وربما كان مرجع ذلك ، أو أحد مراجعه ، أنها حاولت أكثر مما تستطيع ، فحشرت نفسها بين جبابرة الحرب حشراً ، وكانت فى ذلك كالهر يحكى الأسد . وقد ينفعنا فى هذا الصدد أن نلحظ نقطة ضعف خطيرة فى تكوين هذه الدولة القومى ؛ فهناك فارق كبير بين شمال إيطاليا حيث الثروة الزراعية والصناعية ، وحيث مستوى المعيشة والثقافة لا يكاد يفترق عنه فى بقية أجزاء أوربا الغربية ، وبين جنوبها حيث الجفاف والفقر والمرض ، وحيث ينحط مستوى المعيشة إلى حد لا تعادله إلا حال أفقر أجزاء القارة . وقد أدى التفاوت بين الشمال والجنوب فى هذه الدولة الناشئة إلى عدم الاتساق والتكافؤ بين شطرى الوطن الواحد ، بل بين شطرى الشعب الواحد . وكان ذلك عامل ضعف خطير كامن فى كيان إيطاليا والأمة الإيطالية ؛ لعله أن يكون — إلى جانب فقر البلاد العام من حيث مقومات الحياة الصناعية الناهضة — مصدر ما انتهى إليه الأمر ساعة المحنة من تصدع وتفكك وانحلال .

من هذه الأمم جميعاً وغيرها من الأمم الصغيرة والمتوسطة تألفت قارة أوربا ، فجاءت قارة معقدة التركيب متنافرة التكوين من النواحى الطبيعية والبشرية على حد سواء ؛ فلا هى مؤلفة من أمم متمايزة ، لكل منها توجيهها الجغرافى ، وطابعها الثقافى والحضارى الذى تختلف به عن بقية الأمم ؛ كما هى الحال فى آسيا حيث الصين والهند وجنوب غرب القارة (العالم العربى) ، وهى كلها مناطق لكل منها حياتها وحضارتها وتاريخها واتجاهاتها العامة ؛ أو كما هى الحال فى أمريكا الشمالية حيث الولايات المتحدة وكندا من جهة والمكسيك من جهة أخرى . ولا هى مؤلفة من عدد من الأمم المتجاورة التى يسود بينها نوع من الرباط الثقافى والوحدة الفكرية ، وإن خالفت بينها الحدود والفوارق السياسية ، كما هى الحال فى أمريكا اللاتينية . وإنما هى قارة تزاحمت فيها القوميات ، وتنافرت الأهداف السياسية ، وتداخلت الحدود تداخلاً ينذر معه أن يتمشى حد سياسى لإحدى الدول مع حدها الطبيعى العسكرى ، أو مع حدها الجنسى أو الاقتصادى . وزاد من التشاحن وحدته أن التقدم الحديث قد صاحبه أمران متنافران أشد التنافر ترتبت عليهما نتائج متعارضة أشد التعارض : أحدهما نمو روح القومية

الضيقة التى تقوم على أساس الجنس حينا ، وعلى أساس الرباط التاريخى أو السياسى حيناً آخر ، والتى تدفع الأمم الناشئة إلى الأنانية والأثرة ، وإلى أن تنطوى على نفسها ، ولا ترعى إلا مصالحها الخاصة بصرف النظر عن مقتضيات الجوار أو حتى عن بعض المقتضيات الإنسانية التى تهذّب مراعاتها من نفوس الأمم كما تهذب من نفوس الأفراد . وثانيهما ذلك التقدم المادى وما صحبه من نمو فى وسائل المواصلات ، وازدياد مدهش فى سرعتها أدى إلى تشابك الأقطار وتداخل المصالح ؛ بحيث أصبح من غير الممكن لأمة أن تعيش داخل حدودها أو أن تنطوى على نفسها ، لا سيما تلك الأمم التى تقوم فى داخلية قارة كأوربا . والظاهر أن هذا التناقض والتنازع بين المصالح القومية والمصالح الدولية كان أكبر مما تستطيع النفس البشرية فى أوربا أن تتغلب عليه ؛ خصوصاً أن أوربا ، بل الأوربيين الشماليين كما نعرفهم ، كانوا ولا يزالون محدثين فيما يتصل بكثير من القيم الإنسانية الصحيحة ، وما تقتضيه من تهذيب للنفس ورياضة للروح ؛ فقد قفزت بهم المدنية المادية الحديثة إلى القمة فى بضعة قرون قليلة ، ووضعت فى أيديهم سلاحاً من المادة والعلم والمعرفة بأسرار الطبيعة لم يكونوا مؤهلين لأن يتحكموا فيه ، ولا أن يوجهوه الوجهة الإنسانية الخيِّرة . وكان مثلهم فى ذلك كمثل الصبى ، وضع فى يده سلاح خطير لا يدرك قيمته ولا يحسن استعماله ولا توجيهه وجهة الخير والحق ولذلك فهم قد سخّروا العلم فى التدمير والتخريب كما سخروه فى البناء والتعمير سواء بسواء . . . ولعل السر الأول فى ذلك أن التقدم المادى فى الحضارة الأوربية الحديثة لم يكن له ما يناظره من ناحية الروح . فأوربا ذات المدنية المادية المزدهرة لم تطلع علينا فى عصرها الذهبى بوحى دينى جديد أو حتى بفلسفة إنسانية من ذلك النوع الذى يلهم الأرواح ويهدى النفوس ، بل يحد من طغيان المادة ، ويعاون على التحكم فيها بوازع من دين ، أو رادع من عقل أو من ضمير .

ومهما يكن من شىء ، فقد كانت النتيجة أن دخلت هذه القارة فى حروب متصلة منذ طلع فجر نهضتها الصناعية الحديثة . وكانت هذه الحروب من نوعين ظاهرين ، وإن لم يتيسر دائما فصل أحدهما عن الآخر : أولهما يتصل بتلك الحدود السياسية التى تفصل بين أمم القارة ، والتى قلل من قيمتها ما كان من تقدم فى المواصلات ، وزيادة فى الاحتكاك والاتصال ، وتشابك فى المصالح بين

الشعوب . ولم تستقر حدود أية دولة من دول أوربا الحديثة أكثر من جيل أو بعض جيل . وقد تتابعت الحروب سريعة فى معظم أنحاء القارة ، وترتب عليها ظهور دول واختفاء أخرى أو اندماج بعضها فى بعض . وأغلب الظن أن هذا النوع من الحروب التى تقوم من أجل تعديل الحدود بين دول أوربا لن ينتهى أمره قبل أجيال ، وأن أوربا لن تخلص منه حتى يجىء اليوم الذى يدرك فيه أهلها أن الحروب السياسية فى مثل هذه القارة التى تضيق بالسكان لا يجب أن تقوم عقبة فى سبيل تحقيق الاتحادات الاقتصادية التى تقضى بها طبيعة الأشياء ، وتحتمها مقتضيات الحياة المادية المعقدة فى هذا الركن المضطرب من العالم . وأما النوع الآخر من الحروب التى انتابت أوربا فى عهدها الحديث فذلك الذى يتصل بالتوسع الاستعمارى فيما وراء البحار ، والسيطرة على تجارة العالم والتحكم فى علاقات الأمم بعضها ببعض ، لاسيما علاقات أوربا بغيرها من القارات . وقد تمثل هذا النوع بصورة واضحة فيما كان من نزاع بين الجرمان والبريطانيين خلال الأربعين سنة الأخيرة أو أزيد من ذلك . فقد ضاق مجال الحياة والنشاط بالألمان فى وسط القارة ، فوطدوا النية على انتزاع السيطرة العالمية من بريطانيا ، أو مشاركتها فيها على الأقل ، وأخذوا فى بناء قوتهم البحرية استعداداً لذلك . ولكن بريطانيا لم تكن من الغفلة بحيث تترك الأمور تسير إلى غير مصيرها المرسوم ؛ فقابلت خطة ألمانيا بمثلها ، حتى إذا ما جاءت الحرب كانت الظروف مواتية لبريطانيا من ناحية القوة البحرية على الأقل ، وانتهى الصراع المروع الذى بدأ فى عام ١٩١٤ بهدنة موقوتة فى عام ١٩١٨ ثم بنصر أكيد فى عام ١٩٤٥ . وبدت بريطانيا وكأنها قد احتفظت وحلفاءها الناطقين بالإنجليزية فى أمريكا بسيادة البحار والسيطرة على علاقات أوربا بالمستعمرات فيما وراء البحار . ومع ذلك فمن يدرينا ! فقد تكون هذه الحرب التى انتهت منذ عام خاتمة دور من أدوار التاريخ الأوربى بين الجرمان والبريطانيين من أجل السيطرة العالمية ، وفاتحة دور جديد بين الصقالبة والناطقين بالإنجليزية فى بريطانيا وأمريكا ! لقد استغرق الدور الأول أربعين عاماً أو تزيد بين استعداد الحرب ونضال مسلح دام زهاء عشرة أعوام فى الجولتين ، بل لقد انقلب هذا النضال بجولتيه إلى حرب عالمية مروعة شارك فيها أكثر من ٩٠ ٪ من سكان العالم ، وقضى فيها او بسببها ما يناهز خمسة وعشرين مليوناً من الأنفس .

أفيخبئ القدر للعالم أن تبتليه أوربا بحرب عالمية جديدة يستغرق الاستعداد لها جيلاً آخر، ويطول النزاع المسلح فيها إلى أكثر من جولة واحدة ؟ لعل أشد ما تهلع له النفوس أن النزاع الجديد — إن وقع — فسيكون بين قوتين مختلفتين فى الاستعداد تمام الاختلاف ؛ فإحداهما تستند إلى الأساطيل والقواعد البحرية ، وهى ضرورية للسيطرة العالمية والتحكم فى المواصلات ، ولكنها لا تكفى لاكتساح اليابس واحتلال ظهر القارات ، على حين تستند الأخرى إلى الجيوش البرية التى هى أداة ضرورية لاكتساح الميادين واحتلال المواقع ، ولكنها لا تستطيع بدون الأساطيل أن تسيطر على المواصلات العالمية . ومعنى هذا أن الحرب التى ينتظر أن تطالعنا بها أوربا فى المرة القادمة ستكون بين قوتين غير متناظرتين ولا متكافئتين ؛ ولن تستطيع إحداهما — بحكم تكوينهما — أن تتمكن من الأخرى دون استعداد شامل وتضحية بالغة . وإذا لم يلجأ المتحاربون فى نضالهم المقبل إلى أسلحة ذرية لا يمكن أن يتنبأ أحد بنتائج استخدامها بالنسبة لهم وللإنسانية جمعاء ، فإن الحرب لابد أن تطول . . . وهى لا ينتظر أن تنتهى بأحد الفريقين إلى نتيجة فاصلة فى جولة واحدة على أية حال !

سليمان حزين